سوسيولوجيا الأدب : (النشأة و التطـــــوّر)

سعيدة تومي(*)

ملخص:

يمثل كتاب الروائية الفرنسية مدام دوستال الصادر عام1800م و المعنون ب "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية" أول دراسة منهجية في مسار سوسيولوجيا الأدب ، جمعت الأدب و المجتمع في كتاب واحد ، أكدت من خلاله أنّ الأدب يتغير يتغيّر المجتمع ، ثم اكتسبت دراسة هيبوليت تـــين أهمية كبيرة في ضوء طرحه لثلاثيته المشهورة " البيئة ، الزمن ، العرق" وأكد على صلة الأدب بكل هذه العناصر.

قدمت بعد ذلك الفلسفة الماركسية جملة من المبادئ في ظل فلسفة المادة أسبق من الفكر ، فأثرت بذلك على نظرية الانعكاسالتي جمعت بين هذه الفلسفة وعلم الاجتماع ، فخلصت إلى أنّ الأدب على صلة وثيقة بكل هذه العناصر دون أن تلغي خصوصيته الفنية .

وفي ضوء كل هذه الجهود ظهرت في القرن العشرين مجهودات أخرى جمعت بين النظرة الاجتماعية والتاريخية ترأسها جورج لوكاتش، ليواصل لوسيان غولدمان في هذا المجال بأسلوب متميز جمع فيه بين البنيوية والنظرة الماركسية . وأخيرا قدّم زيما تطورا آخر من خلال بلورة الأبحاث اللسانية و اللغوية لصالح الظاهرة الأدبية ، فأنتج بذلك علما آخرا يختص بعلم اجتماع النص .

abstract :

Sociology of Literature : Origin and evolution The book of the French novelist Mrs. Dèstal , published in 1800 , entitled "Literature in its relationship with the social systems" is the first methodological study in the history of the sociology of literature , which collected the literature and society in one book, confirmed that the literature varies depending on the change of society. Then, the study of Hippolyte Tin has gained great importance in the light of his famous trilogy " environment , time, race .". He confirmed the relationship of literature with all these elements .

After, the Marxist philosophy provided a number of principles in the light of the philosophy of matter is before thinking. it has influenced the theory and reflection that combines this philosophy and sociology. It infers that literature is closely associated with all these elements without the repeal of his artistic specificity.

In light of all these efforts, and in the twentieth century, other efforts have emerged and gathered the historical and social perspectives led by George Lukacs . Lucien Goldman continued in this area by a remarkable style that he collected between structuralism and Marxist view. Finally, Zima presented another development through the crystallization of the linguistic and language researches in favor of the literary phenomenon .So hecreatedanother science whichconcenesociologytext.

هناك مقولة تتردد كثيرا عن طبيعة الإنسان فقد قيل إنه اجتماعي بطبعه وقيل أن الإنسان ابن بيئته وانعكاس لتفاعلاتها المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولعل هدا ما يدعونا للتساؤل حول طبيعة العلاقة بين الأدب

*استاذة مساعدة–ب- ، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة برج بوعريريج.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجتمع ، فهل يمكن عزل فكر الإنسان و خياله عن الواقع اجتماعي الذي يعيش فيه ؟

إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة، ولا يتولد فن عموما ولا أدب خصوصا إلا في الجماعة و من أجل الجماعة ، فلا يمكن أن نقول : إن فلانا ينتج فنا ليتمتع به وحده أو يقول شعـرا ليسمعه به وحده، ثم من أين يستمد الفنان أو الشاعر انفعاله المبدع ؟

أليس من تجاربه في مجتمعه ؟ وهل يقتبس صّوره وقيّمه إلا من الثقافة التي تلقاها ؟ كما أنه لا يمكن أن يشعـر براحة و رضى إلا عندما يجد من يقرأ شعـره ويتمتع بـه ، ويشاركه انفعالاته وأحاسيسه .

إننا مع هذا لا ننكر أنّ لكل شاعرا طابعا خاصا يميّز شعـره عن سواه، وأن لشخصيـة الأديب وحياته النفسية دورا بارزا في إنتاجه الأدبي، ولكن الأدباء والفنانين هم أيضا أبناء بيئتهم منها يستمدون تجاربهم ، وفيها يشع إنتاجهم ويتدفق إبداعهم، فلا فن ولا أدب إلا في الجماعة ومن أجل الجماعة، ومن ثمة لا يمكن الغوص في أعماق الأدب إلا داخل الإطار الاجتماعي الذي منه ينطلق الأدب وإليه يعود، وهذا موضوع علم الاجتماع الأدبي على الإجمال.

إنّ النظر في العمل الأدبي على أنّه يعكس الواقع الاجتماعي أو الحياة الاجتماعية بكل ما تحمّله من تناقضات وآمال و ألام وطموحات ورغبات تعـود إلى العصور القديمة جدا ، ويمكننا القول إنها ترجع إلى حكماء اليونان القدماء الذين عبّروا عن هذه العلاقة في خطاباتهم الفلسفية و الأدبية .

وإذا أردنا الرجوع إلى الوراء بدا لنا أنّ الفيلسوف اليوناني أفلاطون أول ناقد اهتم بالناحية الاجتماعية باعتبارها معيارا لاستحسان الشعر ، فقد طـرد الشعراء من جمهوريته الفضلى لأنهم يفسدون الأخلاق ، وأما الذين ينظمون الأشعار لإشعال نار الحماسة في نفوس المحاربين فلهم كلّ التقدير. (1)

هكذا نجد جذور علم اجتماع الأدب في نظرية المحاكاة التي طرحها وطوّرها أرسطو ، فهي تلمح إلى التفاعل و الترابط بين الأدب والمجتمع بتعبير المحاكاة، و رؤيته إلى الفن على أنّه محاكاة للمحاكاةاستنادا إلى فلسفته المثالية التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة ، لذلك يرى الكون مقسم إلى عالم مثالي وعالم طبيعي محسوس، وهذا الأخير ما هو إلا صورة مشوهة ومزيفة عن عالم المثل الأول، إذن العالم الطبيعي محاكاة للعالم المثالي . (2)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالفنان أو الشاعر عندما يصف شجرة مثلا فهو يحاكي العالم المحسوس الذي أصلا محاكاة للعالم المثالي، وما انحصرت نظرية المحاكاة على ما قاله أفلاطون ، وجاء بعده أرسطو، واستخدم المصطلح ذاته الذي استخدمه أفلاطون ، لكنه منحه مفهوما جديدا عما قدّمه أفلاطون، وأكد أنّ الشاعر لا يحاكي ما هو كائن ، و إنّما يحاكي ما يمكن أن يكون، فإذا حاول الفنان أن يرسم منظرا طبيعيا ينبغي ألا يتقيد بما يتضمنه ذلك المنظر ، بل عليه أن يرسمه أجمل ما يكون . [3]إذن الشعر من وجهة نظر أرسطو مثالي يتمم ما في الطبيعة من نقص، كما أشارت نظرية المحاكاة بطريقة أو بأخرى إلى الوظيفة الاجتماعية للأدب فأفلاطون قد طرد الشعراء من جمهوريته خوفا من تأثيرهم السلبي على المجتمع .

ولكن من المحاولات الرائدة التي حاولت ربط الأدب بالواقع الاجتماعي تعود إلى القرن18 للميلاد وهي محاولة المفكر الايطالي جيامبا تيستا فيكو(1668-1744) في كتابه "مبادئ العلم الجديد" الصادر عام 1725، وفيه ربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي، فقام بربط ملاحم هوميروس بالمجتمعات العشائرية، وقال بأنّ الدراما نشأت مع ظهور المدينة ،أين يمكن أن تتجمع جمهور المشاهدين، أما الرواية فقد ظهرت مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم ...[4]وفيما يخص نظرة فيكو في الربط بينالأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي فانه يأخذ بعنصر الزمن من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية كحديثة عن ظهور الملاحم في المجتمعات العشائرية ثم ظهور الرواية في مجتمع المدينة .

هذا ما يؤكد أنّ النظرة الاجتماعية للأدب ليست وليدة القرن الحالي أو الماضي، وإنما تعود إلى عهد قديم ، فقد وعى الفلاسفة والنقاد ضرورة البعد الاجتماعي للأدب ، غير أنهم لم يصلوا إلى بلورة نظرية نقدية متكاملة قائمة على أسس منهجية وأصول معرفية إلا في القرن 19 للميلاد على أيدي جملة من النقاد والباحثين .

1- مجهودات مدام دوستال (1766-1817):

يتفق معظم الباحثين على أنّ الإرهاصات الأولى للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب ونقده بدأت منهجيا منذ أن أصدرت الكاتبة الروائية الفرنسية مدام دوستال كتابها المعنون ب "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية " الصادر عام 1800 م، تحدثت فيه عن دور عامل الهوية القومية وعلاقته بالوسط الاجتماعي، وأثرهما في الإبداع والذوق الفني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعد هذا الكتاب أول محاولة لجمع مفهومي الأدب و المجتمع في دراسة منهجية واحدة ، وفيه أكدت الناقدة " أننا لا نستطيع فهم الأثر الأدبي وتذوقه تذوقا حقيقيا في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه وظهوره" [5] وإذا كان فيكو قد اهتم بعنصر الزمان من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية، فإن مدام دوستال قد تقدمت خطوة إلى الأمام في مضمار الربط بين الأدب والواقع الاجتماعي، حيث ترى أنّ كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية و جغرافية ما، كما اهتمت بالبحث في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير هذا الأخير فيها [6]، فالأدب في رأيها " يتغير بتغيّر المجتمع ، ويطّرد تطوره مع تزايد القدر الذي يحظى به المجتمع من الحريات الفردية العامة، ودليلها على ذلك أنّ الأدب الفرنسي مثلا، اكره في عصر ما قبل الثورة على الاتجاه نحو الهجاء والتعبير بمرارة، فكأنّ أفق التاريخ كان أمامه مسدودا خلافا لما بعد الثورة، فقد تغير هذا الأدب تغيرا كبيرا نتيجة التغيير الاجتماعي، وزيادة نصيب الأفراد من الحرية الشخصية " [7]، وبما أنّهذه الحرية الجديدة لم تكن فرنسية فحسب، وإنما اتسعت لتكون أوروبية، فقد شمل التغيير الأدب الأوروبي كلّه بما في ذلك الأدب الانجليزي والأدب الألماني.

إذن تلخصت مجهودات مدام دوستال في رؤيتها للأدب على أنه يتغير بتغيّر المجتمعات، ويتبدل بتبدلها، ويتطور حسب تطور الأوضاع الاجتماعية، ومن هنا رأت أنّه أصبح من الضروري بعد قيام الثورة الفرنسية (1789) ظهور أدب جديد يعبّر عن مجتمع ما بعد الثورة، ويختلف عما كان عليه قبل الثورة ، وصار لزاما على النقد أن يحوّل سؤاله من "كيف يكتب الأدباء" إلى "عن ماذا يكتبون" فأرادت من هذه الفكرة أن توجه النقد إلى مسار جديد يهتم بالموضوعات التي تناولها الإبداع أكثر من الاهتمام بفنون الكتابة والبلاغة التي احتلت مساحة كبيرة من كتب النقد القديم .

وبالرغم من هذه المجهودات القيّمة لمدام دوستالفي تاريخ المنهج الاجتماعي للأدب، إلا أنّه قد خطا خطوة أخرى إلى الأمام مع الفيلسوف والناقد هيبوليت تين .

2- هيبوليت تين و الاتجاه الاجتماعي (1828-1893):

كان لابّد من الانتظار أكثر من نصف قرن حتى تظهر دراسة أخرى أكثر منهجية وأكثر ضبطا من الدراسة الأولى، وهي التي قدمها الناقد الفرنسيتين في تفسيره للأدب، وقد تأثر كثيرا بتطورات العلوم المختلفة، فتقدم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمفهوم النقد الاجتماعي خطـوة الى الأمام، وهي محاولة اخضاع الأدب للنظرية العلمية على غرار ما هو قائم في العلوم الأخرى.

استند تيـن في نظريته الواردة في كتاب "تاريخ الأدب الانجليزي" الصادر 1863م الى اعتبار أنّ الأدب حصيلة عوامل ثلاثة ، استفاد في تحديدها من الدراسات التي سبقته، و خاصة دراسة فيكوو دوستال، فقد أضاف الى عامل الزمن الذي قال به فيكو، والعامل الجغرافي الذي قالت به مـدام دوستال، عاملا ثالثا هو الجنس أو العرق، ليشكل بذلك ثالوثه المعروف "الوسط، الزمن، الجنس " :

2-1-الوسط أو البيئةle Milieu : فالإنسان في بيئته خاضع لأوضاع حتمية هي التي تتحكم بالأدب أو الحياة العقلية للفرد، وبالتالي فالبيئة هي الاطار الطبيعي والاجتماعي الذي يتحرك فيـه الأديب، فهناك دائما ترسبات فطريـة هي نتيجـــة لموروثات فردية أو جماعيـة، جسميـة ومزاجية لها أثرها في تكوين الفرد[8]، اذن هناك ترسبات مكتسبة هي نتيجة للظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة بالكاتب، وهي أيضا لها أثرها في توجيـــه الفرد، وعليه فالعمل الأدبي بلا شك سيتأثر بالعوامل الخارجية المكتسبة .

2-2- الزمـن أو العصـر: الذي أنتـج فيه الأدب، وهو يعني روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريـــــخ التراث، وربّما يعني به ما عبّـــر به شاعـر عـربي قديـم بقوله " لكل زمان دولة ورجال " ، فالزمن هو هذا الامتداد التاريخي الذي يؤثر على تطور الأدب، فبقدر ما هو مكاني هو زماني أيضا ، و الملاحظ أنّ تين قد نظر الى التاريخ نظرة سكونية أي أنّ الزمن يؤثر سلبا على تطـــور الأدب، اذ ينظر الى النتاج الأدبي الأول على أنّه ابداع حقيقي، وأنّ الذي جاء بعده هو تقليد النتاج الكلاسيكي الأصل، وما عداه فمجرد تقليـــــد.

2-3- العـــــرق أو الجنـــس: والمقصـود بـه الاستعدادات الفطريـة التي تولـــــد مع الانسان ، ويكون لها صداها في تكوينه الجسمي والمزاجي أو أنّه تلك الخصائص القومية والمقصود بها تلك الحوادث الجسام و الدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والملامح الجسدية ، والتي تختلف من أمة الى أخرى [9].

إذن كانت هذه الثلاثية المشهورة " الوسط ، الزمن ، العرق " التي اعتمدها تيـن في دراسته للأدب، ورأى أنّه من دون هذه العناصـر لا يمكن فهم العمل الأدبي وتفسيره ونقـده ، ولقد عرفت هذه النظرية نجاحا بالغا طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولعلّ السبب يعود الى الطريقة العلمية التي عرض بها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منهجه، غير أنّه من الملاحظ أنّ تين قد جعل الأدب بمثابة ظاهـــرة من الظواهر الطبيعية يسجل بعض الانفعالات المحددة القابلة للمعالجـة والاختبار، ويمكـن للدارس الأدبي أن يفهم العمـل الأدبي ويفسّـره في ظل هذه الثلاثيـة، ولكن هل الظاهرة الأدبية تسمح بمثل هذا التعميم في القوانين؟ أليس الأدب ظاهـرة فنيـة ؟ أليست الظاهـــرة الفنيّـة عظيمة بقدر قابليتها لتعدد المعاني ولعشرات التأويلات، مما يجعل انخراطها في قانون عام أمرا مستحيلا ؟

إن الظاهرة الأدبية نات طبيعة تخييلية، وهو ما يعني أنّه لا يمكن أن تكون مادة تجريبية تخضع لقوانين عامة ، و تدخل في قوالب جاهزة تقاس عليها جميع النصوص، واذا كانت الظاهرة الطبيعية مادة قابلة للملاحظة والقياس والتعميم، واكتشاف قوانينها ،فإنالظاهرة الأدبيـة تخرج عن ظاهرة التعميم والقياس، لتدخـل دائرة الفردية والتخصيص، فالعلم تعميم و الفن تخصيص ، العلم تجميع والفن تفرد.

ثم إن الدارس أو الناقد الأدبي عندما يدرس أدب أديب معيّن، فهو غالبا لا يهتم اهتماما بالغا بما يشترك فيه ذاك الأديب مع بقية البشر أو مع باقي أدباء عصره ، فهو غالبا ما يدرسه لاكتشاف ما تفرد به هدا الأديب، و ما تميّز به دون سواه .

وهذا ما جعل نظرية تين تنتقد من ناحيتين، أولا من حيث النظرة السكونية للتاريخ الأدبي، وثانيا من حيث جعل الكلاسيكية مثالا تقاس عليه الفنون، كما أنه أهمل أثر الجانب الفردي الخاص بالمبدع. وعلى الرغم مما قدمه الفيلسوف تيـــن إلا أنّ هذه الآراء تعبر عن الالتفات إلى الصلة بين الظاهرة الأدبية والمجتمع ، ولكنها لم تتوصل إلى إدراك علاقة التأثير والتأثـر بيـن الأدب والمجتمع، إلاّ أنّ التطور الحقيقيفي دراسة الأدب اجتماعيا كان مع ظهور الفلسفة الماركسية التي ركزت على الجانب الاقتصادي في توجيه الفن والأدب .

3- الفلسفة الماركسية والاتجاه الاجتماعي :

الماركسية نظرية في الاقتصادوضعها كارل ماركس (1818-1883) بمشاركة فودريكانجلز(1820-1905) في منتصف القرن التاسع عشر، وقد اشتهرت هذه النظرية بالشيوعية، كما أسماها البعض بالتفسير المادي للتاريخ، أما عن نشأة هذه النظرية بتأثيـر نضال طبقـة العمال (البروليتاريا)، حيث ثار العمال في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر في انجلترا وفرنسا وألمانيا.

تدور الفكرة الماركسية حول محور الأساس الاقتصادي للمجتمع (البنية التحتية) الذي يحدد طبيعة الايديولوجيا والمؤسسات والممارسات (كالأدب)التي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تشكل البنية الفوقية لذلك المجتمع، وبما أنّ الأدب بنية فوقية تعكس الواقع الاجتماعي والاقتصادي للبنية التحتية، إذن لابد من وجود علاقة حتمية مباشرة بين القاعدة والبنية الفوقية ، فأيّ تغيّر في قوى الإنتاج المادية، لابّد من أن يحدث تغييرا في العلاقات والنظم الفكرية .

وإذا كان تين قد نظر إلى التاريخ نظرة سكونية، فانّ الماركسية على النقيض من ذلك، فقد نظرت اليه نظرة حركية، وقد قامت أساسا لتفسير حركة التاريخ، والتحولات الاجتماعية التي تحكم المجتمع، والتي تؤدي إلى إحداث أفكار وقيم تعبّر عنذلك التحول، وعلية فالماركسية فلسفة اجتماعية، حملت على عاتقها التفسير الاجتماعي والاقتصادي للتحولات التي عرفتها المجتمعات في محاولة لاستنباط القوانين التي تتحكم في هذه التحولات .

إذن لا ينعزل الأدب عن المجتمع والتاريخ، ولا يكون بناء لغويا مستقلا عن التأثيرات الخارجية. والواقع الاجتماعي في الفلسفة الماركسية ليس خلفية مبهمة ينبثق الأدب منها، إن له شكلا محددا، وهذا الشكل قائم في التاريخ الذي يعتبره الماركسيون سلسلة من الصراعات بين الطبقات الاجتماعية وبين الإنتاج الاقتصادي .

وبعد أن وضحنا المحور الأساسي للفلسفة الماركسية والمتمثل في البنية التحتية للمجتمع وعلاقتها بالبنية الفوقية، نلقي الضوء على الجوهر العام لهذه الفكرة، وذلك بشرح المصطلحين الذين قامت عليهما :

3-1- قاعـــدة الصراع الطبقي :ترى أنّ التحولات الحاصلة عبر التاريخ كان محركها الصراع الطبقي، بمعنى أنّها قد لاحظت واستنتجت من خلال دراستها لتاريخ المجتمعات، أنّها قائمة على صراع طبقي نتيجة تضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية، فكل مجتمع فيه طبقات يؤدي إلى قيام ثورات تسعى للقضاء على النظام الطبقي .

إن هذا الصراع يتجاذب فيه طرفان مستغل و مستغل ، الأول يحاول دائما المحافظة على مصالحه وامتيازاتـــه، والثاني يسعى لكي ينتزع جزءا من حقوقـــه فيحتـدم الصراع بينهما، وعندما يتعادل ميزان القوة يحل نظام اجتماعي واقتصادي جديد يتنازل فيه المستغل عن بعض امتيازاته للمستغل، ولكنه يحمل في طياته تناقضات النظام السابق مما يؤدي الى نشوب الصراع ثانية ،و قيام نظام جديد وهكذا، وانطلاقا من هذه المعطيات تفسر الماركسية حركة التاريخ فحركة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التاريخ لا تسير في خط مستقيم ، بل في خط منكسر، وما يبطئ هذه الحركة هو الصراع الاجتماعي، فهناك طبقة أولى تسعى لإبطاء حركة التاريخ للحفاظ على مصالحها، وهناك طبقة ثانية تسعى لإسراع حركة التاريخ، والقضاء على النظام الطبقي. وبظهور نظام جديد نعتقد أننا قضينا على الصراع، الا أنّه تغيير جزئي يدفع الى نشوب الصراع ثانية، وبالتالي دراسة هذه التحولات التي تصاحب فترة ما تدفع لحركية التاريخ التي تسعى لها الماركسية .

3-2- قاعـــــدة المادية الجدلية : المعروف أنّ مؤرخي الفلسفة ينظرون اليها بنظرتيـن، الأولى يصفونها بالمثالية و هي التي تنظر للوجود المادي على أنّه جاء بعد الوجود الفكري، يعني أنّ الفكر أسبـــق في الوجود من المادة، في حين تؤكد الفلسفة المادية على الاتجاه الأخر و هو أسبقيـة المادة على الفكر، وهي التي تصنعه، ومن هنا صنفت الماركسية ضمن الاتجاه الثاني المادي، والتي ترى أنّ المجتمع مشروط بوسائل انتاجه، فاذا كان تين قد حصر العوامل المؤثرة في الأدب في ثالوثه المعروف، فانّ الماركسية تضيف عاملا رابعا و هو أساليب أو وسائل الانتاج .

انّ المادية الجدلية تقوم على أساس أنّ الأفراد في المجتمع تربطهم علاقات انتاجية، وهذه العلاقات هي ما تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنية قانونية و سياسية عليا تتوافق معها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي، ويتحكم نمط الانتاج في الحياة المادية بحركة الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية عموما[11]أيأنّ البناء الاقتصادي تحكمه مجموعة من العلاقات الانتاجية.

وفوق هذا البناء نجد بناء أخر هو البناء الفوقي الدي تحكمه علاقات فكرية، وقد صنف الأدب ضمن البناء الفوقي، لأنه جزء من البناء الفكري، وأيّ تغيّر في البناء التحتي يتبعه تغيّر في البناء الفوقي، ومعنى ذلك أنّه كلما تغيّرت الأوضاع الاجتماعية (البناء التحتي) تغيّر البناء الفوقي بما فيه الأدب والفكر .

اذن " فليس البناء العلوي أو الفوقي المكوّن من القانون والفن يتطور على نحو ذاتي بل انّه مرتبط في تطوره بالناحية التاريخية للمجتمع التي تمتد منحنياته على حسب تطور البناء الاقتصادي"[12]. ومن ثم فانّ الأدب حسب المنظـور الماركسي خاضع للتغيّر اذا قامت الثورة و أطاحت بالبنى الأساسية للمجتمع ليتحول الى أدب جديد يتغيّر على طبقة اجتماعية جديدة، وفي ضوء هذه النظرة قد أعاد الماركسيون النظر في أمرين اثنين هما : طبيعة الأدب وغايته .[13]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالنسبة لطبيعـة الأدب فالماركسية تؤكد على أولوية المادة، والوجود هو الذي يقرر الشعور، ومن هذا المعتقد فانّ الأساس الابداعي لعمل الفنان يتلخص في أنّ كل عمله انعكاس للعالم الذي يعيش فيه، ورأى الماركسيون أنّ الأدب انعكاس للواقع شاء ذلك الأديب أم لم يشأ، وفكرة الانعكاس هذه تبطل في نظرهم الكثير من المفهومات النقدية السائدة قبل ذلك، فأحبطت فكرة الالهام التي نادى بها أفلاطون وأرسطو، ونقاد الرومانسية وغيرهم .

أما عن غايـــة الأدب فهي عندهم وثيقة الصلة بموقف المبدع من قضية الصراع الطبقي الذي يسود المجتمع، فاذا كان المجتمع يشهد صراعا طبقيا حدد هدف الأدب و غايته بنصرة احدى الطبقتين أو التعبير عن احداهما، واذا كان المجتمع يشهـد تحـوّلا تتقلـد فيه الطبقة العماليـة -مثلا-مقاليد السلطة، فانّ غاية الأدب في هذا الحال هي الفاع عن مكاسب الطبقة الجديدة [14].

وانطلاقا من الفكر الماركسي وبناء على ما سبق فقد أضافت الماركسية عاملا رابعا له دوره في التأثير على الأدب، وهو وسائل الانتاج التي تراها تفرض بنيات الأدب الأساسية، وهذا ما يفسر تطور المجتمعات من جيل لأخر، وما دامت القوى المنتجة في تغيّر مستمر فانّ المجتمعات تظل في تحول مستمر، وبالتالي فأيّ منهج اجتماعي في النقد الأدبي المرتكز أساسا على الفلسفة الماركسية لا ينصب اهتمامه نحو تقدير الأفكار والموضوعات بالعودة الى العلاقات الاجتماعية الصادرة عنها فقط ، بل يهتم كذلك بمدى اسهامه في بعث حركـة التاريخ والعمل على تنشيطها .

4- نظريـــــــة الانعكاس :

خلافا للنظريات الأدبية الت سبقتها (أي نظرية المحاكاة ، التعبير ، الخلق) فانّ نظرية الانعكاس استندت في تفسيرها الأدب و تديد طبيعته ووظيفته الى الفلسفة الماركسية (المادية الجدلية) التي كنا قد أشرنا اليها سابقا ، ولكن لابأس أن نذكر بإطارها العام، فالمادية الجدلية تقوم باعتبارها الأساس الفلسفي لنظرية الانعكاس على مفهوم يتلخص في أولوية البناء التحتي الذي يمثّل مجمل علاقات الانتاج على البناء الفوقي الذي يمثل مجمل القيـم الفكرية والسياسية والاجتماعية....، والعلاقة الموجودة بين البناءين هي علاقة حتمية بمعنى أنّ اشكال البناء التحتي تنعكس في البناء الفوقي، والتغيير في البناء الأول يؤدي الى تغيير في الثاني.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبناء على الفكر المادي فانّ أي تغيير في علاقات الانتاج يتبعه تغيير في المثل الفكرية، وهـو ما يؤدي بالضرورة الى تغيّر في الأشكال الأدبيـة من حيث الموضوعات والأساليب والأهداف ، وهذا يعني أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي [15].

هذا عن الأساس الفلسفي الذي تقوم عليه نظرية الانعكاس، و لكن دون أن نغفل أنّها تقوم كذلك على علم الاجتماع، بالنسبة الى علم الاجتماع الأدبي أو Sociologie de la littérateur يهتم بدراسة العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع، وتخصيص أحد فروع علم الاجتماع لدراسة الظاهرة الأدبية يدل دلالة صريحة على دور الأدب في التعبير عن قضايا المجتمع أو فلنقل اتخاذ الأدب كأداة لرصد الواقع الاجتماعي.

انّ علم الاجتماع الأدبي هو أحد ميادين علـم اجتماع يقوم على أساس دراسـة العمل الأدبي ومبدعه وطبقته الاجتماعية ، وقرائه واتجاهاتهم، كما يهتم برصد طبيعة العلاقة بين مضمون العمل الأدبي ومجموع الوقائع الاجتماعية أو الثقافية في مرحلة تاريخية محددة .

إن دراسة العمل الأدبي بوصفه ظاهرة اجتماعية مثلها مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى هي دراسة لاشك ستكون فعالة في فهم النص الأدبي، وكشف بعض الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية، مما يسّهل على الدارسين والنقاد فهم الكثيـر من الأعمال الأدبية من خلال ربطها بمحيطها هذا من جهة ومن جهة أخرى هده الدراسات ستفيد علماء الاجتماع في تأكيد نظرياتهم .

إن هناك مجالات متعددة لهذا الفرع المعرفي أو وجود مستويات متعددة له منها ما يهتم بتفسير نشأة الأدب و وظيفته باعتباره شكلا جماليا ذات دلالات اجتماعية ، ومنها ما يهتم بالبحث عن صورة المجتمع داخل الأعمال الأدبية، ومنها ما يهتم ببحث الأدب على أنّه سلعة أو انتاج، والأدباء ما هم سوى منتجين والقراء مستهلكين [16].

لقد أثّر علم الاجتماع الأدبي في الحركة الأدبية النقدية بحيث اتسع نطاقه، وانقسم بدوره الى فـروع متعددة : علم اجتماع القراءة، علم اجتماع النص، علم اجتماع الأجناس الأدبية، علم اجتماع الراوية على نحو ما ظهر عند لوسيان غولدمان.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فنظرية الانعكاس إذن تقوم على علم الاجتماع، بحيث أنّ تطور الأبحاث والنظريات في هذا الأخير سينعكس حتما على الدراسات الأدبية باعتبار الأدب على علاقة وثيقة بالواقع الاجتماعي ، هذا كما تقوم كذلك على الفلسفة المادية، ولعلّ هذا ما جعلها تنتج منهجا قائم على الفروض و الاستقراء ودراسة تاريخ الفنون العالمية، وحاولت أن تفسّر الظاهرة الأدبية باعتبارها جزءا من الظاهرة الثقافية عامة، مع الاهتمام بخصوصيتها واستقلاليتها النسبية عن باقي أنساق المعرفة والعلوم الإنسانية[17]

5- سوسيولوجيا الخطاب الأدبي :

ظهرت في القرن العشرين جهود كثيرة في مجال علم الاجتماع الأدبي شكلت تطورات مهمة للنقد الاجتماعي تأسيسا على هذا الموروث التاريخي الذي خلّفه كارل ماركس وغيره من الفلاسفة و العلماء .

وقد برز جورج لوكاتش(1885-1971) منظرا لهدا الاتجاه " فقد مزج بين النظرة التاريخية للأدب والنظـــرة الاجتماعية في كتابه الذي لا يخلو من دلالـــة على هدا المنحى وهو كتاب " الرواية التاريخية " فالسلوك الذي يتجلى لدى شخصيات الرواية التاريخية مثلا يصعب فهمه بمعرفتنا للمؤلف وحده، وانما لابد من معرفة السلوك الاجتماعي الى جانب ذلك، وهذا يتطلب بطبيعة الحال دراسة الزمن التاريخي الذي يصوّره "[18] .

لقد قام لوكاتش بدراسة وتحليل العلاقة بين المجتمع والأدب، باعتباره انعكاسا وتمثيلا للحياة، وقدّم دراسات ربط فيها بين نشأة الجنس الأدبي وازدهاره، وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما تسمى "سوسيولوجيا الأجناس الأدبية "تناول فيها نشأة الرواية المقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية .

وقد خصص جورج لوكاتش الكثيـــر من أعماله حول الفكر والأدب والفن، مستندا الى ربط وثيق بين الذوق الكلاسيكي الذي لا يتوقف عن ابداء اعجابه به، وبين العقيدة الماركسية التي بقيّ مخلصا لها طوال حياته، فكتاباته وتنظيراته الأدبية لا تزال من المراجع الأساسية للأدباء والنقاد .

ثم جاء بعده لوسيان غولدمان وجدّد النظرة الماركسية للأدب عن طريق المزج بين البنيوية Structuralismeالتي شاعت في الدراسات الأنثروبولوجية عند شتراوس والمادية التاريخية لدى الماركسيين، وتأثر غولدمان بجورج لوكاتش تأثرا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كبيرا، وقد عبّر عن آرائه وأفكاره في كتب مختلفة أهمها " سوسيولوجيا الرواية "أي علم اجتماع الرواية، وقد اعتمد غولدمان على جملة من المبادئ أهمها :

الأدب ليس انتاجا فرديا، ولا يعامل باعتباره تعبيرا عن وجهة نظر شخصية، بل هو تعبير عن الوعي الطبقي للمجتمعات، بمعنى أنّ الأديب عندما يكتب فانّه يعبّر عن وجهة نظر تتجسد فيها عمليات الضمير الاجتماعي، فجودة الأديب واقبال القراء على أدبه تعود الى قوّته في تجسيد المنظور الاجتماعي .

العمل الأدبي يتميّز ببنية دلالية كليّة، وهي ما يفهم من العمل الأدبي في اجماله، وهذه البنية تتكون من المقابل المفهومي، والمقابل الفكري للضمير الاجتماعي لدى الأديب.

النص الأدبي عند غولدمان بنية متولدة عن بنية أشمل وأعمق هي البنية الاجتماعية للجماعة أو الطبقة التي يمثلها المبدع، ولهذا لابد من دراسة العمل الأدبي للكشف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة الاجتماعية التي يعبّر عنها.

ونقطة الاتصال بين البنية الدلالية في العمل الأدبي والوعي الاجتماعي هي أهم الحلقات عند غولدمان، والتي يطلق عليها مصطلح "رؤية العالم" فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم .

والفارق بين غولدمان والبنيويين أنّ هؤلاء ن أمثال شتراوس ورولان بارث يدرسون الأثر الفني (النص) من حيث هو بنية داخلية مستقلة عمّا عداها، مثلما تدرس الكلمة الواحدة في علم الصرف من حيث بنيتها ، وهل هي اسم فاعل، أو اسم مفعول، أواسم مكان ،أما عند غولدمان فهي بنية نسبية يتوقف اكتمالها على تحقيق الانسجام بينها وبين الأعمال الأدبية الأخرى ، تماما مثل سلوك الفرد لا يتضح خيره من شرّه الا من خلال وضعه في السياق الذي يتطلبه سلوك الفرد[19].

والجدير بالذكر أنّ سبب الاهتمام بالرواية في معظم النظريات الاجتماعية الحديثة للأدب وعدم التركيز على النصوص الشعرية، ليس لعدم عناية هؤلاء النقاد بالنص الشعري واهمالهم له، وانّما قد يعود ذلك الى أنّ الرواية تعكس القضايا الاجتماعية وتجسّد تلك الظواهر والصراعات في مختلف الشخصيات، وبالتالي فهي أكثر مجالا للمقاربات الاجتماعية للأدب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثم حدث تطور في فروع علم الاجتماع الأدبي، فأدى الى نشوء علم اجتماع النص الذي يعتمد على اللغة بوصفها واسطة الأدب والحياة فهي مركز التحليل النقدي في الأعمال الأدبية .

وتمكن هذا المنهج من تجاوز فكرة "رؤية العالم " لغولدماناذ ليست سوى فكرة ذهنية فلسفية، فعلـــم اجتماع النص تصور لغـــوي يرتبط بجذور الظاهرة الأدبية، وان كانت المناهج الاجتماعية السابقة ركزت في الغالب على الجانب المضموني في العمل الأدبي على حساب الشكل ، فانّ منهج سوسيولوجيا النص الأدبي الذي يمثّله زيـــــما(1946) حاول الافادة من الأبحاث اللسانيـة والبنيويـة المعاصرة، ويهتم ببنية النص اللغوية والرمزية بجانب المحتوى الذي هو متجسد في هذه الوحدات اللغوية، وهكذا " يصّر زيما على الانطلاق من الانجاز الهام الذي حققه النقد الأدبي في نصف القرن الماضي أو أكثر ، ألا وهو أهمية النص، غير أنّه يقدّم مفهوما مختلفا للنص، لا باعتباره بنية لغوية مغلقة ينبغي البحث عن تجريدها المثالي، وانما ككيان ملموس وحيّ يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة، ولكن يحمل في هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في اطارها ويبدع ويتلقى"[20].

ومجمـــل القول أنّ الاقبال على سوسيولوجيا الأدب ليس غرضه اثراء حقـل الاجتماع و تبرير فرضياته، ولكنه بحث في صميم العملية الأدبية باستقطابه زواياها الثلاث: المؤلف ، الناشر، القارئ ، ووصف رحلة الخطاب الأدبي عبر هذه القنوات، قبل استقراره في حقل القراءة، في حقل مميّز .

كلّ هذه اضاءات تطل على الظاهرة الأدبية ابداعا ووظيفة وطبيعة ، وعلى العوامل المؤثرة في تطور الأدب و في ظهور أنواع أدبية جديدة، وفي الكتّاب وانتماءاتهم ومن خلال الاهتمام بمسألة الذوق العام ونوعية القراء ونوع استجاباتهم للأعمال الأدبية ، وبأثر التقدّم الصناعي والتكنولوجي والانتاج بالجملة وبدور الناشرين، وهي التي تعطي لسوسيولوجيا الأدب مشروعية الوجود كرافد علمي لا يفسر الأدب بقدر ما يعمل على موضعة الظاهرة الأدبية في اطارها المتشابك[21]

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهوامش و الاحالات :

1-ينظر- ابراهيم محمود خليل – النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – دار المسيرة – الأردن – ط1-2005 – ص66.

2-ينظر- شكري عزيز ماضي – محاضرات في نظرية الأدب –دار نشر للتوزيع – الجزائر – ط1- 1984- ص14.

3-ينظر- المرجع نفسه – ص25.

4-ينظر- المرجع نفسه – ص126.

5-ينظر- ابراهيم محمود خليل – النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – ص67.

6-ينظر – شكري عزيز ماضي –محاضرات في نظرية الأدب - ص126.

7-ابراهيم محمود خليل – النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – ص67.

8-ينظر – شكري عزيز ماضي –محاضرات في نظرية الأدب – ص64.

9-المرجع نفسه –ص63 .

10-ميجانالرويلي- سعد البازغي- دليل الناقد الأدبي – المركز الثقافي العربي – المغرب – ط1-2003 – ص223.

11-ينظر- المرجع نفسه –ص 323-324.

12-رجاء عيد – فلسفة الالتزام بين النظرية و التطبيق – منشأة المعارف – الاسكندرية ـ دط- د ت –ص131 .

13-ينظر – محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – نهضة مصر – دط- 2004 –ص28 .

14-ينظر- ابراهيم محمود خليل – النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – ص68.

15-ينظر – شكري عزيز ماضي –محاضرات في نظرية الأدب - ص126.

16-ينظر- المرجع نفسه – ص125 –ص 130.

17-ينظر- المرجع نفسه – ص66.

18-ابراهيم محمود خليل- النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – ص69.

19-ينظر- المرجع نفسه – ص71.

20-بيير زيما – النقد الاجتماعي : نحو علم اجتماع للنص الأدبي – تر : عايدة لطفي –دار الفكر – مصر –ط1 – 1991 – ص7 – (نسخة الكترونية)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

21-ينظر –حبيبمونسي– نظريات القراءة في النقد المعاصر- منشورات دار الأديب – الجزائر – د ط – 2007-ص 29.

قائمـة المراجـع :

1-إبراهيم محمود خليل – النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك – دار المسيرة – الأردن – ط1-2005 .

2-بيير زيما – النقد الاجتماعي : نحو علم اجتماع للنص الأدبي – تر : عايدة لطفي –دار الفكر – مصر –ط1 – 1991 – (نسخة الكترونية)

3-حبيبمونسي– نظريات القراءة في النقد المعاصر- منشورات دار الأديب – الجزائر – د ط – 2007.

4-رجاء عيد – فلسفة الالتزام بين النظرية و التطبيق – منشأة المعارف – الاسكندرية - د ط- د ت

5-شكري عزيز ماضي – محاضرات في نظرية الأدب – دار نشر للتوزيع – الجزائر – ط1- 1984.

6-محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث – نهضة مصر – دط-2004

7-ميجان الرويلي- سعد البازغي– دليل الناقد الأدبي – المركز الثقافي العربي – المغرب – ط1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com